

خطبة عيد الأضحى: الانقياد والاستجابة لأوامر الله من خلال قصة الذبيح

بتاريخ: 10 ذو الحجة 1440هـ - 11 أغسطس 2019م

عناصر الخطبة:

العنصر الأول: استجابة الخليل وابنه عليهما السلام لأوامر الله

العنصر الثاني: بين استجابة الصحابة لله ورسوله واستجابتنا

العنصر الثالث: آداب عيد الأضحى وسننه

أما بعد:

المقدمة:

العنصر الأول: استجابة الخليل وابنه عليهما السلام لأوامر الله

عباد الله: إن الابتلاء سنة كونية ولا سيما في حياة الأنبياء عليهم السلام؛ ومن أشد الأنبياء بلاءً إبراهيم عليه السلام؛ فهو أحد أولي العزم الخمسة من الرسل: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتمهم محمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين.

فإبراهيم ابتلي في قومه وولده؛ وهل هناك أشد بلاءً من إحراقه بالنار؟! ولكن الله نجاه منها وسلب منها صفة الإحراق!! والقصة معروفة ومذكورة في القرآن الكريم؛ بعدها سأل ربّه أن يهبه ولدًا صالحًا، عوضًا عن قومه، ويؤنسه في غربته، ويعينه على طاعة ربّه .

فاستجاب الله دعاءه فرزقه ولدًا صالحًا: { وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ } (الصفات:

99 - 101). رزق إبراهيم بولده إسماعيل في سن كبير، ورد في التوراة أنه كان في السادسة والثمانين من العمر، ولنا أن تنخيل كم يكون

قدر هذا الطفل الذي جاء على شوق كبير وانتظار طويل، فأحبه وقرّت عينه، وتعلّق قلبه به؛ ترى كم يكون قدره عند والديه ومحبتهم له؟! إن الواحد منا لو تأخر في الإنجاب خمس سنوات - مثلاً - يذهب إلى أمهر الأطباء ويضحى بالغالي والنفيس من أجل الإنجاب؛ وكم تقدر

فرحته لو رزق بمولود بعد طول هذه المدة؟! فما بالك لو كان ذلك بعد ستة وثمانين عامًا؟!

رزق إبراهيم عليه السلام بإسماعيل؛ وبلغ معه مرحلة السعي؛ أي كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وعلى هذا فإن إسماعيل في

سن بداية الشباب ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، ووالده قد قارب المائة عام، ومن المعلوم أن الوالد حينما يكبر في السن يزداد ضعفه، ويبدأ في

الاعتماد على ولده بصورة كبيرة .

ونلاحظ شدة البلاء حينما يأمر الله تعالى أن يتولى إبراهيم بنفسه الذبيح، لم يخبره الله أنه سيموت فيهون الأمر، ولا يطلب منه أن يرسل بابنه

الوحيد إلى معركة، ولا يطلب منه أن يكلفه أمرًا تنتهي به حياته.. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده..... يتولى ماذا؟! يتولى ذبحه!!.

ونلاحظ أن إسماعيل كان هو الوحيد في هذا الوقت ليس له إخوة آخرون، لو تخيل أحدنا هذا الأمر!!

ماذا لو أمرك الله بذبح ولدك وحيدك؟! هل تقوى على ذلك؟! والله إنه لبلاء لا يطيقه إلا الأنبياء!!؛ { فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يُبَيِّئُ لِي

أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا بَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ } (الصفات: 102)؛ فلم يتردد، ولم

يخالجه إلا شعور الطاعة والتسليم والاستجابة والانقياد؛ إنه لا يلبي في انزعاج، ولا يستسلم في جزع، ولا يطيع في اضطراب؛ كلا إنما هو

الرضا والطمأنينة والهدوء!!

وهنا وقفة: لماذا أخبر إبراهيم ولده بالأمر؟!

إن إبراهيم لم يأخذ ابنه على غرة (فجأة) لينفذ أمر ربه وينتهي؛ إنما يعرض الأمر عليه كالذي يعرض المؤلف من الأمر؛ فالأمر في حسه

هكذا..... ربه يريد !! فليكن ما يريد !!!

وابنه ينبغي أن يعرف ويعلم الأمر، وأن يأخذ الأمر طاعة واستجابة واستسلاماً وانقياداً، لا قهراً واضطراراً، لينال هو الآخر أجر الطاعة، وليسلم هو الآخر ويتذوق حلاوة التسليم!!

وانظر إلى مدى البر والاستجابة والطاعة والانقياد من إسماعيل الذبيح عليه السلام؛ يوصي أباه قبل التنفيذ قائلاً: يا أبت أوصيك بأشياء: أن تربط يدي كيلاً أضرب فأوذيك!! وأن تجعل وجهي على الأرض كيلاً تنظر إلى وجهي فتأخذك الشفقة فترحمني فلا تنفذ أمر الله!! واكفف عني ثيابك كيلاً يتلطح عليها شيء من دمي فينقص أجري وتراه أمني فتحزن!!! واشحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإن الموت شديد!! وأقري أمني من السلام؛ وقل لها اصبري على أمر الله!! ولا تخبرها كيف ذبحتني وكيف ربطت يدي!! ولا تدخل عليها الصبيان كيلاً يتجدد حزنها علي!! وإذا رأيت غلاماً مثلي فلا تنظر إليه حتى لا تجزع ولا تحزن!! فقال إبراهيم عليه السلام: نعم العون أنت يا ولدي على أمر الله!!

فأمر إبراهيم السكين على حلق ولده فلم يحك شيئاً؛ وقيل انقلبت. فقال له إسماعيل: ما لك؟! قال: انقلبت، فقال له: أظعن بها طعنا، فلما طعن بها نبت ولم تقطع شيئاً، وكان السكين تقول بلسان الحال: يا إبراهيم أنت تقول اقطع؛ ورب العزة يقول لا تقطع!!!! لأن الله تبارك وتعالى لم يشأ لها أن تقطع، لأن السكين لا يقطع بطبعه وبذاته وإنما خالق القطع هو الله تعالى وحده، فالله خالق للسكين والمسبب، كما أن الله تعالى هو خالق الإحراق وخالق النار التي هي سبب للإحراق، فالنار لم تحرق نبي الله إبراهيم عندما أُلقي فيها لأن الله تعالى خالق الإحراق وقد سلبه منها؛ فلم يشأ لها أن تحرق نبيه إبراهيم عليه السلام؛ وقتها نودي: يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا؛ وهذا فداء ابنك؛ فنظر إبراهيم فإذا جبريل معه كبش من الجنة. قال تعالى: {وَقَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ} [الصفافات: 107]؛ أي أن الله تعالى خلص إسماعيل من الذبح بأن جعل فداءً له كبشاً أقرن عظيم الحجم والبركة.

وقد صور أحدهم ذلك أدق تصوير في أبيات رائعة؛ وهي قصيدة طويلة اقتطفت منها ما يؤدي الغرض المنشود:

وأمرت بذبحك يا ولدي *** فانظر في الأمر وعقباهُ
ويجب الابن بلا فزع *** افعل ما تؤمر أبتاهُ
لن نعصي لإلهي أمرا *** من يعصي يوماً مولاهُ !!
واستل الوالد سكيننا *** واستسلم الابن لرداهُ
ألقاه برفق لجبين *** كي لا تتلقى عيناهُ
أرأيتم قلباً أبويا *** يتقبل أمراً ياباهُ ؟؟
أرأيتم ابناً يتلقى *** أمراً بالذبح ويرضاهُ ؟؟
وتهمز الكون ضراعات *** ودعاء يقبله اللهُ
تتوسل للملأ الأعلى *** أرض وسماء ومياهُ
ويقول الحق ورحمته *** سبقت في فضل عطاياهُ
صدقت الرؤيا فلا تحزن *** يا إبراهيم فديناُ

لقد أسلما.. فهذا هو الإسلام في حقيقته، ثقة وطمانينة ورضى وتسليم.. وانقياد واستجابة وتنفيذ.

عباد الله: إن هذا الأمر جاء ابتلاءً واختباراً وامتحاناً لإبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام؛ فلما ظهر منهما الاستسلام والخضوع والاستجابة؛ وتأكد ذلك؛ جعل الله الفداء لإسماعيل عليه السلام؛ قال الإمام ابن القيم رحمه الله: " إنَّ المصلحة في الذبح كانت ناشئةً من العزم وتوطين النفس على ما أمر به، فلما حصلت هذه المصلحة، عاد الذبح مفسدة، فُنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرايين من الهدايا

والضحايا سنة في اتّباعه إلى يوم القيامة" (جلاء الأفهام)؛ وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: من فضل الله على الأمة أنه لم يتم الذبح لإسماعيل عليه السلام؛ فلو تم الذبح لأصبح ذبح الأولاد سنة.

وقال الإمام أبو حنيفة: فيه دليل على أن من نذر أن يذبح ولده يلزمه ذبح شاة.

أيها المسلمون: إذا كان الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام قد ضربا لنا أروع الأمثلة في الفداء والتضحية والاستجابة والانقياد والطاعة لأوامر الله عز وجل؛ فعلينا أن نضحّي بأمولنا وأوقاتنا وأفئالنا وأقوالنا ونجعلها كلها طاعة واستجابة وخضوعاً لله عز وجل؛ وهذا ما سنعرفه في عنصرنا التالي إن شاء الله تعالى !!

العنصر الثاني: بين استجابة الصحابة لله ورسوله واستجابتنا

عباد الله: لقد أمرنا الله عز وجل بالاستجابة لله ولرسوله وأخبرنا أن في ذلك حياتنا فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ } (الأنفال: 25)؛ قال السُّدِّيُّ: { لِمَا يُحْيِيكُمْ } ففي الإسلام إحياءهم بعد موتهم بالكفر. (تفسير ابن كثير) .
وقد عاتب النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً أبطأ في إجابته صلى الله عليه وسلم - مع أنه كان في الصلاة -؛ فعن أبي سعيد بن المَعْلَى قَالَ: "كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ؛ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي. فَقَالَ أَمْ يَقُولُ اللَّهُ: { اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }" (البخاري)؛ وهذا دليل على أنه يجب على المسلم أن يمتثل لأوامر الله، وأن يجتنب نواهيه، وأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأن يحذر مما خالف النصوص.

وإنني في هذه العجالة السريعة أسوق لكم بعض النماذج من سرعة استجابة الصحابة الكرام لأوامر الله ورسوله؛ مقارنة بين ذلك وبين واقعنا المعاصر في تطبيق هذه النماذج !!

النموذج الأول: تحريم الخمر: لما نزل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة: 90)؛ أخذ هذه الآية بعض الصحابة وذهب بها إلى أماكن شرب الخمر بالمدينة ليبلغهم التحريم؛ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إِنِّي لَقَائِمٌ أَسْقِي أَبَا طَلْحَةَ، وَقُلَانًا وَقُلَانًا، إِذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَهَلْ بَلَّغَكُمْ الْخَبْرَ؟ فَقَالُوا: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: حُرِّمَتِ الْخَمْرُ، قَالُوا: أَهْرِقْ هَذِهِ الْقَلَالَ يَا أَنَسُ، قَالَ: فَمَا سَأَلُوا عَنْهَا وَلَا رَاجِعُوهَا بَعْدَ خَبْرِ الرَّجُلِ" (البخاري)؛ فانظر كيف كانت الخمر شراهم منذ سنين طويلة؛ ومع ذلك استجابوا لله ولرسوله مع أول خبر!! فما أجمل مسارعة الصحابة رضي الله عنهم في الاستجابة لأمر الله تبارك وتعالى ولو كان هذا الأمر على خلاف أهوائهم، وذلك واضح في قولهم انتهينا!! فأراقوا الخمر في طرق المدينة مباشرة عندما سمعوا الخبر، ولم يكتفوا بالانتهاء عن الشرب وينتظروا حتى يسألوا رسول الله عن هذه الخمر التي عندهم، ولم يقولوا في هذا إضاعة للمال!!! قارن بين ذلك وبين من يتلوا آيات الله ويسمعها ليلاً ونهاراً ويقرأ آيات التحريم ويصلى بها ومع ذلك يدمن الخمر والمخدرات!! ولا أريد أن أسترسل في المقارنات حتى لا أطيل على أسماع حضراتكم وكفى بالواقع المعاصر على ذلك دليلاً !!

النموذج الثاني: الحجاب: فعن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة، فذكرنا نساء قريش وفضلهن. فقالت عائشة، رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً وإني -والله- وما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشدّ تصديقاً بكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل. لقد أنزلت سورة النور: { وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ }، انقلب إليهن رجالهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرْطَها المَرْحَلِ فاعتجرت به، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح معتجرات، كأن على رؤوسهن الغربان. (تفسير ابن كثير)؛ وأخرجه أبو داود بنحوه بسند صحيح)

عباد الله: لقد نزلت آية الحجاب في المساء؛ وأخبر كل صحابي أهله؛ وجاءت النساء في صلاة الفجر خلف النبي صلى الله عليه وسلم محتجبات؛ كأن على رؤوسهن الغربان؛ قال ابن قتيبة في غريب الحديث والأثر: "فأصبحن على رؤوسهن الغربان: أي أن المروط كانت من شعر أسود، فصار على الرؤوس منها مثل الغربان"؛ قارن بين ذلك وبين نساء المسلمين في هذه الأيام؛ والمرأة تخرج من بيتها كاسية عارية

متعطرة تحيط بها شياطين الإنس والجن من كل مكان!!! وهي تتلوا آيات الله التي نزلت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان!! أما نساء الأنصار فاستجنبن من خلال سواد الليل!!! فأين هؤلاء من هؤلاء!!

النموذج الثالث: قصة خلع النعال: وهذا نموذج عملي في الاستجابة؛ فحينما خلع النبي -صلى الله عليه وسلم- نعليه في الصلاة خلع الصحابة نعالهم؛ تأسياً ومُتابعة له، فعن أبي سعيد الخدري قال: بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ؛ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ أَلْقَوْا نِعَالَهُمْ. فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاتَهُ قَالَ: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى إلقاء نعالكم؟» قَالُوا: رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَكَ فَأَلْقَيْنَا نِعَالَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ جِزِيلٌ أَتَانِي فَأُخْبِرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَدْرًا إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَدْرًا أَوْ أَدَى فَلْيَمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا» (أبو داود والدارمي بسند صحيح).

فانظر إلى الصحابة لم ينتظروا حتى انتهاء الصلاة ليسألوا الرسول عن ذلك؛ بل امتثلوا الأفعال قبل الأقوال؛ وهذا يدل على سرعة الانقياد والاستجابة والتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل أقواله وأفعاله!!

أيها المسلمون: ونحن في موسم حج بيت الله الحرام؛ أسوق لكم نموذجاً أغضب النبي صلى الله عليه وسلم لعدم سرعة الاستجابة وكثرة سؤال أحد الصحابة وترديد الكلام على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات!! فعن أبي هريرة قال: "خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ! قد فرض الله عليكم الحجَّ فحجُّوا فقال رجلٌ: أكل عامٍ؟ يا رسول الله! فسكت. حتى قالها ثلاثاً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قلتُ: نعم. لوجبت. ولما استطعتم. ثم قال ذروني ما تركتكم. فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم. فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم. وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه" (مسلم).

لأن من قبلنا كانوا كثيري الأسئلة والاختلاف وعدم الانقياد والطاعة للأوامر؛ ويحضرني في ذلك فعل اليهود مع موسى عليه السلام حينما اختلفوا في أمر القتل فأمرهم أن يذبحوا بقرة؛ - وقصة البقرة معروفة في سورتها- وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم؛ قال ابن كثير: "لو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنهم شددوا فشدد عليهم!!"

عباد الله: هناك أمثلة كثيرة حفل بها القرآن والسنة في الأوامر والنواهي ومدى سرعة استجابة الصحابة لها لا يتسع المقام لذكرها كالأستجابة للجهاد والإنفاق وغير ذلك؛ وما ذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ ويكفي القلادة ما أحاط بالعنق!!

فهنيئاً لمن استجاب لله ولرسوله صحبة الحبيب في الآخرة والشرب من يديه الشريفتين؛ وسحقاً سحقاً وحسرة وخسارة لمن لم يستجب لأوامر الله ورسوله وينتهك الحرمات في الأشهر الحرم!!

العنصر الثالث: آداب عيد الأضحى وسننه

أحبتني في الله: ونحن في يوم عيد الأضحى نذكركم بأهم آداب وسنن العيد التي يجب أن نستن بها من هدي نبينا صلى الله عليه وسلم في يوم الأضحى والتي تتمثل فيما يلي:

أولاً: الاغتسال قبل الخروج إلى الصلاة

فقد صح في الموطأ وغيره: "أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ كَانَ يَغْتَسِلُ يَوْمَ الْفِطْرِ قَبْلَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَى الْمُصَلَّى."؛ وذكر النووي رحمه الله اتفاق العلماء على استحباب الاغتسال لصلاة العيد.

ثانياً: ذبح الأضحية

ويستحب الذبح بعد صلاة العيد مباشرة؛ لقوله تعالى: { إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ } (الكوثر: 1-3)؛ فعن البراء رضي الله عنه قال: "خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البقيع فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وقال: إن أول نسكنا في يومنا هذا أن نبدأ بالصلاة ثم نرجع فننحر" [البخاري]. ووقت الذبح أربعة أيام، يوم النحر وثلاثة أيام التشريق، لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كل أيام التشريق ذبح". (ابن حبان وأحمد والبيهقي).

